# اللصّان ...

قصة بقلم أحمد الباقري

ـ ثلاثة اشهر يارجل ! دون ان تمد لي يدك بفلس واحد ، ليس بيتي جامعا ، فانا مسيحية ولن يكون ذلك .. واذا اردت ان تنام بالمجان.. فهناك الارصفة وتحت الجسور ومجاري المياه القذرة .. لا استطيع ان اتحمل اكثر من ذلك .

ـ ايتها السيدة ماري .

ـ لن اسمع كلمة واحدة ، فقد سئمت هذه اللغة .

ـ ايتها السيدة ماري .. هبيني لحظة واحدة لاتكلم ، حسنا .. سوف استلم النقود خلال هذا الاسبوع .

ـ كفى اعذارا ملفقة ! الا تجد غير هذا العذر الاولي . ابحث لك عن عذر اخر . آه .. ولكني لااريد ان اسمع اعذارا بعد الان .

ـ ليس عذرا ايتها السيدة .. انه الحقيقة .

ـ اية حقيقة هذه! اذا كانت حقيقة لدفعت لي ايجار الثلاثة الاشهر الماضية منذ عدة اسابيع ، ولذلك فلن تنام الليلة في هذه الغرفة ان لم تدفع لي .

ـ ايهون عليك ان انام على الرصيف في هذه الليلة .. وفي هذا البرد ايتها السيدة ماري .. ها .

ـ اوه ! لاتجعلني عاطفيه !

ـ حقا ؟

ـ وكيف يهون علي ذلك .. آه لو تعرف .. انني اعتبرك احيانا مثل ابني بل اكثر منه !

ـ وهكذا يعامل الابن ؟

ـ ولكنك لست كذلك بالنسبة لزوجي ، فانت تعلم انه يطالبني بايجار غرفتك في نهاية كل شهر ، واضطررت الى تسديده مما ادخرته في الايام السالفة ، ولذلك فانت مدين لي وليس لزوجي .

ـ مادمت كذلك فانت كريمة بما فيه الكفاية .

ـ الى حد ما ، ولقد بلغ كرمي هذه الليلة نهايته ، ولن اطيق اكثر من ذلك .

ولكنه مبلغ كبير ، ولا استطيع دفعه مرة واحدة ، فليكن ايجار شهر واحد ايتها السيدة الرحيمة .

ـ اوه حسنا .. عندما تعود هذه الليلة فيجب ان يكون في جيبك، والا ...

ـ نعم .. نعم .

ـ هذه الليلة .. افهمت ؟

وعبرت الشوارع المعروفة والمجهولة ابحث عن رجل اقترض منه ذلك المبلغ حتى احسست بان ساقي اصبحتا من رخام . وبالرغم من ضآلة المبلغ غير انه يبدو ضخما واسطوريا في الايام العشرة الاخيرة من الشهر ، وعثرت على نفسي .. مدخنا لفافة في شارع النهر الخالي الا من الريح والنور الشاحب والمتجمد من البرد .

وخطوت تحت الجسر ، وكان صدى خطواتي يزداد هالات كبيرة حتى اصبح دائرة واسعة تضم العالم ، فتباطأت في سيري كي تطول فترة سيادتي على العالم ، ثم غدت خطواتي عميقة تضرب في جذور التاريخ وامتدت على الحاضر وعرشت حتى مملكة المستقبل الرهيبة الذي كنت اخاف ان افكر فيه .

خطواتي في المستقبل .. وانا هنا تحت الجسر ومهدد بالطرد هذه الليلة .. ولكن ماذا تفعل خطواتي في المستقبل ؟

« عودي ايتها الخطوات الحمقاء ! »

واستعدتها الى تحت الجسر ، فاصبحت وخطواتي في الحاضر ، وهذا مما يدعو للطمأنينة الانية .

وابتعدت عن الجسر انظر الى الخوف المتجمد والمهجور بالوقت ذاته كان خوفا مجانيا يبعث القشعريرة العميقة في نفسي ، ويكفيني قشعريرة هذا الجسد المغطى بالسترة التاريخية والبنطلون الاسطواني .

وكان في فوهة الشارع معرض كبير للتحف والاثاث الفخم ، وقد اعتدت ان اقف امام الزجاج محدقا في لوحة مقلدة لفوغان على العمود الرخامي الذي يرفع سقف المعرض ، وكانت تلك اللوحة مهربا لي الى ارض الشمس الحارة والنساء النحاسيات والثمار الاستوائية الحمراء والكبيرة .

واحسست بفراغ مفاجيء حينما ادركت ان اللوحة غائبة ، وكان على العمود الرخامي لوحة اخرى فيها ازهار زرقاء كبيرة تطفو في فراغ احمر . ثم تركت نظرتي تلك اللوحة وذلك الرخام محدقة في النور الازرق الذي ينبعث من اعماق المعرض . واحسست بوحشة غامضة من صمته الكبير ، وزرع بي ذلك الصمت رغبة غريبة بدأت احس بالغبطة حينما بدأت تكبر .

فخرج مني شبح ، واخترق الزجاج بنعومة.. رأسي ذاته والذراعان والجذع الطويل ذو الانحناءة المجهدة ولكنه يبدو اكثر خفة مني .

فخطا الشبح عدة خطوات قلقة على بلاط المعرض اللامع ، ثم سرى الثبات في خطواته وشعر كأنه في بيته . فتمطى بكسل وتثاءب ثم فرك يديه .. ومضى بعد ذلك الى المدفأة الكهربائية الضخمة ،واشعلها بحركة احتفالية واحس بدفء عميق يغمره حتى اطرافه ، ثم فرك يديه مرة اخرى واخذ ينظر الي بتساؤل ، واخفضت رأسي بحركة بطيئة وقلت له :

ـ حسنا لقد تدفأت بما فيه الكفاية .

ومضى يخطو بمرح في جوف المعرض ، وكان يبدو حقيقيا اكثر مني اذ لم ابق سوى غلاف بليد متروك وراء الزجاج في البرد دون ان يحس به .

وبدأ رأس الشبح يدور وذراعاه يتدليان مثل رقاصي ساعتين عتيقتين ، وامتصه مستطيل كبير من خشب الماهاجوني اللامع ..واقترب منه ، ومد اليه كفه بحذر ومضت تبحر في النعومة « خشب .. وباب غرفتي من خشب ايضا ! » ولدت الرغبة في رؤية ماوراء الخشب ، فرفع الغطاء .. ثمة اسطوانةسوداء كبيرة .. « هيا فلنرحل الى عوالم اخرى .. » فوضع الشبح الابرة على الاسطوانة .. وكانت بحيرة البجع .

غمز لي بعينه المعتمة وقال : ياللروعة ! كم كنت بحاجة لبحيرة .. وبحيرة للبجع ! وبدأ يرقص على الايقاع الحالم للموسيقى ، واختفى في ذلك العالم ، وحاولت ان اعيده الى عالمه الذي لايقل غرابة عن عالم بحيرة البجع .

فقلت له : كفى .. كفى .. ليس ثمة وقت للرقص .. لاتكن بجعة حمقاء .

وكان الشبح ذاهلا ولم يسمع كلمة واحدة مما قلت ،وادركت بانه افلت من يدي وبدأت افكر في استعادته .

وسمعت وقع خطى بعيدة وراء الجسر ، ثم كان ثمة اناس مترنحون

يمشون على رصيف الشارع . واحسست بخوف من الفضيحة ،ولكن كانت عيون الناس فارغة ، ففقدت خطاهم اصواتها المهددة واصبحت مثل برقيات مغلوطة . وكم كان مغبطا ان تسرق امام الناس دون ان تسمع وراء ظهرك تلك الكلمات المطاردة .. « امسكوه .. لص . »

وابتعدت الخطوات الى طرف الشارع ، ولم اعد اخشى خطوات رجال منتصف الليل .. كانوا اصفارا بيضاء .

وسمعت صوت اشتعال عود ثقاب خلف العمود الاسطواني الضخم المنتصب على حافة الرصيف ، والتفت ببطء مخدر ، ورأيت طرف لفافة متوهج في ظل العمود وعينان تلتمعان في العتمة ، فاحسست بانهما تحرقان ظهري ورقبتي ومؤخرة رأسي ، ومسحت على ظهري بلا مبالاة !

وسمعت اقتراب خطى من ورائي ونحنحة قصيرة متقطعة .

وكان الشبح مازال يرقص ، فتوقف عندما رأى رجلين وراء الزجاج وعاد لي بخطى متباطئة ، واحسست بفرح غامض من عودة شبحي وعثوره على طريق لذلك . وبقيت واقفا ومتظاهرا بالتفرج على المعروضات . وتنحنح الرجل مرة اخرى . ورأيت صورته على الزجاج المعتم .. كان قصيرا وغامضا .

فقال باستغراق بعد ان نفث حزمة دخان وراء رقبتي:

ـ الله .. ما اجملها !

فالتفت اليه وقلت باستغراب : من ؟

قال الرجل بحسرة : تلك المدفأة الكبيرة .

قلت : آه .. لاشك انها جميلة .. وثمينة ايضا !

قال الرجل بتأمل : مااصعب ان يجد الانسان الدفء في هذه الايام .

قلت موافقا : نعم .. انه صعب .

فقال الرجل بلهجة عارض : الا تريد ان تحصل عليه ؟

فسألت ببلاهة : من ؟

قال بثقة : الدفء .

قلت بيأس : بالطبع ولكني لا استطيع .

قال الرجل مستدركا : تستطيع !

وكانت عيناه اعلانين ، فقلت : اوه .. لااستطيع كذلك .

قال الرجل بخيبة امل : ولماذا ؟

قلت ببساطة : لانني لست منهم .

سأل الرجل : من «هم» ؟

قلت : اللصوص .

قال الرجل بلهجة عميقة : آه .. لست منهم .. ولكن قل لي بربك ماذا تفعل في هذه الساعة المتأخرة من الليل تراقب المارة بحذر شديد وتنظر الى سلالم المعرض ، قل لي ماذا يعني ذلك ؟

قلت جازما : كنت متفرجا .

قال الرجل ملوحا باصبعه امام عينيه : لاتغالط .. ان عيوننا هوياتنا ، ولقد عرفتك تماما على التو .

قلت : انك لاتعرفني .

قال : أوه .. دعنا من ذلك ، ولكن الا تريد ان تمتلك تلك المدفأة وذلك « البيك اب » واللوحات .

قلت : نعم اريد ذلك ، وقد امتلكتها قبل قليل .

قال الرجل متسائلا : ماذا تعني ؟

قلت : لقد سرقتها بطريقتي الخاصة .

قال الرجل بلهجة منكرة : ولكنها لم تزل « هناك » .

قلت : نعم ولكني تخيلت انها ملكي .

قال الرجل : يبدو انك تسخر مني .

قلت بثقة : لم اسخر منك ولكني كنت اتخيل ، حتى نظرت وتكلمت انت ففقدت املاكي .

قال الرجل بسخرية : يا للاملاك الرائعة !

قلت : بالطبع !

قال الرجل بنفاد صبر : ولكن هل تستطيع ان تشتري باملاكك هذه رغيف خبز ؟ ها .. ها .. تكلم .

فقلت : لا استطيع ذلك اذ انها غير قابلة للمقايضة ، فليست هي عملة .

قال الرجل : بل هي عملة رديئة !

قلت بانخذال : هذا ماتظنه .

قال الرجل : دعنا من الاملاك الوهمية ، ولنكن شريكين ، اسمع .. هناك انبوب ماء المطر يمر قرب غرفة المدير في الطابق الاعلى .

واخرج من جيبه مفتاحا فولاذيا وقال : وهذا مفتاح غرفة المدير .

فقلت بتعجب : من اين حصلت عليه ؟

قال بغموض : لقد بيضت يد الخادم .

فقلت مهددا : الا تخشى ان اكون من رجال الشرطة السريين ؟

قال الرجل بنفي : لن تكون .

وشعرت بخيبة امل : او على الاقل اخبر عنك لديهم .

قال الرجل : لاتستطيع .

فقلت متسائلا : لماذا ؟

قال الرجل : لا اعرف ، ولكني اعرف انك لاتستطيع ان تقوم بذلك . واراد ان يعرض علي للمرة الاخيرة : هيا لنبدأ بأسم الله .

فقلت مستوفزا : واي اله هذا الذي تسرق باسمه ؟

فقال الرجل : اوه انه طيب ، فينبغي ان لااكون تحت عين الشرطة تلك هي المسألة ، فان عين الله مسامحة ، يكفي ان اقول : « الهي انك تعلم بذلك ».

فقلت باستطراد : ثم يغفر لك الهك على الفور !

قال الرجل بقنوط : هذا مااشعر به .

قلت بسخرية : ياللغفران الجميل !

ثم اضفت : حسنا لتمض وحدك ، رحلة مباركة .

فقال الرجل بيأس : الا تأتي معي ؟

فهززت رأسي باصرار ، فقال الرجل : يجب ان لاتندب حظك وضياع الفرص المسكينة ، لقد ضيعت نفسك .

فقلت بثقة : لم اضيعها بل عرفتها الان ، لتذهب حالا .

فاخذ الرجل ينظر الى الارض واستدار على عقبيه ومضى يخطو على الرصيف متلفتا نحو الزوايا المعتمة وعطفة الشارع البعيدة ثم اختفى خلف الجدار العالي . فعبرت الشارع الى الرصيف الاخر وكنت افكر بذلك الرجل الذي يتسلق انبوب ماء المطر ، واحسست براحة غامضة ، تلك الراحة الكبيرة التي تعقب الشهادة . وفكرت بالسيدة ماري التي تنتظرني في اعلى السلم ، وفي عينيها تلك النظرة المطالبة والتي ستنقلب الى طاردة عندما ترى يدي فارغتين .. النوم على الرصيف . لن يكون ذلك ، فان السيدة ماري طيبة ورحيمة وينبغي على اللسان ان يمتد اذا رأت العين كفا فارغة ، واستطيع ان اتحمل لسان السيدة ماري ولكني لا استطيع ان اتحمل ذلك اللسان الخشن الطويل الذي سينبت لي في داخلي لو امتلكت تلك المدفأة بطريقة ذلك الرجل الغريب ، فان العالم يبدو خفيفا اذا كنت احمل نفسا ثقيلة ، فاخذت انظر الى احجار الشارع المبعثرة وبيوت البشر النائمين في الغرف الدافئة وليس هناك اكثر وداعة من البشر النائمين . حتى بلغت باب البيت الذي اسكن فيه ورأيت النور فيأعلى السلم فتمتمت بصمت :

« مبارك .. مبارك هذا العالم . »

بغداد — احمد الباقري

طبعت على مطابع :
« دار الغد »
تلفون : ٢٢٢٩٢١